مفهوم التلقي والقراءة والتدبر

في ضوء

نقد نظريات التلقي

د. باسل خلف حمود الزبيدي

ملخص البحث:

نحاول في هذا البحث بيان دلالات مصطلحات: التلقي، والقراءة، والتدبر ومفاهيمها في اللغة والنص القرآني من منظور إسلامي؛ يتواءم مع تراثنا، ويتسق مع منهاجنا في فهم القرآن الكريم؛ الذي هو بمثابة الروح التي تحيا بها العقول والقلوب ، والدستور الإلهيّ الذي ينظم حياة الأفراد والشعوب. يأتي ذلك بعد عرض مفهوم نظريات التلقي، ومحاولات بعضهم تطبيقها على القرآن الكريم؛ بالرغم أنها نشأت في مجتمعات ذات مرجعيات تخالف مرجعياتنا العقدية والفكرية، ونظرت إلى النص بكونه منتجا ثقافيّا أو أثرا للثقافة العربية السائدة في مجتمع الحجاز وقت نزوله! وهذا هو أساس الخلط والخبط ، وهو مخالف للحقيقة ، ومناقض للعقيدة .و ثم بينَّا خطورة الأمر ما لم تلتزم هذه النظريات بالضوابط العلمية وتأخذ بها في استنطاق النص القرآني لكشف دلالاته ومقاصده. ثم ذكرنا أهم أنواع القراءات التدبرية من خلال بعض المصادر المختصة بموضوع البحث؛ مع التدوين لأهم النتائج. سائلين المولى أن يتقبل منَّا ويسدد خطانا.

المقدمة :

منذ بزوغ فجر الإسلام ونزول آية:{اقرأ} على قلب النبي محمد صلىّ الله عليه وسلم، ومطالبة الله عز وجل له بالقراءة؛ سواء أكانت تلك القراءة تتبعاً لما سوف يلقيه عليه الروح الأمين؛ أم قراءة هذا الكون والوجود والحياة، والتدبر في آياته، وطريقة خلقه ونظمه، الذي يدل بانسجامه وتناسقه على عظمة الخالق والمدبر والصانع .

وبعد أن اكتمل نزول القرآن الكريم واختتم بقوله ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾(سورة المائدة – الآية ٣) كان الجيل الأوَّل الذي عاصر نزول الوحي قدتلقىَّ النص الإلهي بشكل عملي وتطبيقي وميداني، وبرؤية (سمعنا وأطعنا) منهاجاً وسلوكاً ،كيف لا؛ والنبي صلى الله عليه وسلم هو المفسر للمقصود، والموضح للمراد من كل سورة وآية ، فكان للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم أثر فاعل في توجيه الصحابة رضوان الله عليهم إلى الطريقة العلمية والآلية المنهجية في فن التلقي للقرآن الكريم وتدبره . وعلى مدى عصور كان المفسرون أحظى الناس بصحبة القرآن الكريم، وأدناهم إلى مناهل الوحي، وأقعدهم بمناهج فهمة وتدبره، وقد ساروا في هذه المناهج عنقاً فسيحاً لا يصرفهم صارف عن التأصيل لقواعد النظر الصحيح والتدبر الأمثل؛ فضلاً عمَّا جادت به أقلامهم من قراءات شتى للنص القرآني؛ تفاوتت في منازعها ومشارعها تفاوتها في مقادير الإجادة والإحسان، بيد أن استفراغهم الوسع في التأصيل والتقعيد لم يكن عاصماً لبعض المذاهب والفرق من ركوب التأويل المستكره، والرأي المذموم، انتصاراً للمعتقد أو نضحاً عن المذهب، وإذا كانت فتنة التأويل ذر قرنها في عصور الإسلام الذهبية، وديار العلم مأنوسة، وحملة القرآن متوافرون، والاجتهاد في حيطة من القواعد وإلى ملجأ من النظر السديد، فما بالك اليوم؛ وقد انكمش ظل العلم، وقلَّت الديانة، واستحكمت الأهواء، وأصبحت قراءة القرآن وتفسيره وتدبره – على جلالة قدره وشرف صناعته – متنفساً لكل ذي دخلة سيئة، وعقيدة رديئة، ومصداق ذلك ما يروج من دعوات إلى: (القراءة الحداثية) و(الهيرومينوطيقا)، و(تنقيح النص القرآني)! وكأنها باطنية جديدة في مواجهة الوحي المنزَّل ، ومهما يكن من أمر فقد نقب هذا النقب في فكر الأمة، وتدسَّس منه مَن تدسَّس، وسهرت أعين تربصاً بمقدسات الإسلام، وغفت أعين تهوينا للأمر أو غفلة (١) عمَّا يراد بدين الله، حتى وصل الأمر إلى بعض دعاة الإتباع للآخر بقصد أو بغير قصد إلى تبني أسلوب الآخر وتفكيره في نظرتهم للحياة، بل وصل الأمر إلى تبني نظرياتهم في مجالات العلوم الإنسانية وتصوراتهم وطريقة تعاطيهم للنصوص المقدسة لديهم. ولا يخفى أن الآخر حاول منذ قرون

(١) النص القرآني من تهافت القراءة إلى أفق التدبر، قطب الريسوني ٧

عديدة التمرد على سلطة الدين وتعاليمه وقيمه – المحرفة أصلا – وما يصدر عن الآخر اليوم من نظريات في مجالات العلوم الإنسانية تعود في أصلها وفكرتها إلى التمرد والفسوق عن سلطة الدين، لذا فهم يدأبون ويبتدعون نظريات تنسجم مع أطروحاتهم المنحرفة وتسوق لها ومن تلكالنظريات التي بدأ تأثيرها يتسع لدى بعض المفكرين الذين ينتمون لتيار التنوير كما يدّعون أو يوصفون بهابه: نظريات التلقي، والذي يحاول تنزيل ما أنتجته تلك الفلسفة – في قراءة وتحليل كتبهم المقدسة – على القرآن الكريم.

مفهوم نظريات التلقي والقرآن الكريم:

نظريات التلقي في أبسط توصيف لها؛ هي النظريات التي تمنح القارئ السلطة المطلقة في العبث بسلطة النص ومدلولاته بعيداً عن أنساقه ودلالاته، بل ونظامه الإشاري، للوصول إلى غايات ومقاصد شطت كل الشطط عن غايات النص ومقاصده . وقد ارتبطت نظريات التلقي ارتباطاً وثيقاً بمصطلح القراءة التي أعطت السلطة المطلقة للمتلقي، فكانت القراءة هي علاقة المتلقي بالنص. وبالغ البعض في سلطة المتلقي مما جعلهم يقولون بتغيير طبيعة النص كلياً وإنكان نصاً مقدساً! الذي يتحول من الطبيعة الإلهية (وحي) إلى الطبيعة البشرية (مجرد نص) عندما يتناوله المتلقون، ووفق هذا الطرح يكون " القرآن نصاً مقدساً من ناحية منطوقة، ولكنه يصبح مفهوماً بالنسبي والمتغير أي: من جهة الإنسان، ويتحول إلى نسب إنساني (يتأنسن) "(٢) ويكون " النص منذ لحظة نزوله الأولى أي مع قراءة النبي – صلى الله عليه وسلم– له لحظة الوحي تحوَّل من كونه نصاً إلهياً وصار فهما ونصاً إنسانيا " (٣). فالنص حسب هذه الطروحات يفقد قداسته لمجرد نزوله وتناول الإنسان له بالفهم! أي: أنه لا قداسة للدلالات لأنها إنسانية، وهذا دون الأخذ بعين الاعتبار أي قيد أو شرط كالتمييز بين فهم النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة رضوان الله عليهم مثلاً، ثم ألا يمكن فهم النص الإلهي ما لم يتحول ويقرأ على أنه نص إنساني؟! أم أنه لا بد من ذلك لأن موازين النقد التي تدرس بها النصوص واحدة، ولأنها تأسست أصلاً من أجل النصوص الإنسانية، فما علينا إلا تحويل النصوصغير الإنسانية إلى نصوص إنسانية، لندرسها بهذه الآليات ومن خلال موازين النقد هذه، والتي لا يوجد غيرها ولا يمكن أن يوجد غيرها !.(٤)

---

(٢) نقد الخطاب الديني ،نصر حامد أبو زيد /٦٤.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) مفهوم القراءة عند الحداثين وعلاقته بالتفسير،د فاطمة الزهراء الناصري

يقول محمد اركون في هذا السياق: " لا أستطيع أن أفصل النص الذي صنع لكي يقرأ عن القارئ الذي يقرؤه " (٥) ويبالغ بعضهم بجعل الكاتب والمتلقي يشتركان في إنتاج دلالات النص ، لأن " النص مفتوح، وأن القارئ والمتلقي ينتجانه في عملية مشاركة ، وهذه المشاركة ليست هي الاستهلاك، وإنما هي اندماج القراءة والتأليف في عملية دلالية واحدة، بحيث تكون ممارسة القراءة إسهاما في التأليف" (٦) لكن الواقع أن: " القارئ والمتفهم هو غير الملقي والمتكلم، بله الموحي والمرسل، والنص ينسب بمنطوقه ودلالة ألفاظه صحة أو خطأ، واستعماله لأداة من أدوات الدلالة تلك، لقائله لا لقارئه، وهل يقوم النقد الأدبي وتفضيل شاعر على الآخر إلا على حسن أو سوء اختيار لفظ للدلالة على معنى يقصده الشاعر ويعنيه، ولو كان الانتساب للقارئ؛ لكان شعر أمرئ القيس شامياً حين يقرؤه أهل الشام، وحجازياً حين يقرؤه الحجازيون ...إن نظرية موت المؤلف ... مكتوبة بحروف آيدولوجية ترفض الدين منذ البداية ... وتفرغ الإسلام من محتواه عن طريق تفريغ النص من دلالته " (٧). لقد بالغ البعض فأعطى للمتلقي سلطة من نوع آخر، بحيث لا يقتصر أثره على إعطاء دلالات جديدة للنص، وإنما يملي على صاحب النص الألفاظ المستعملة نفسها، لأنه كما يقول سعد كموني: " إذا كانت المعاني خاصة المبدع، فإن الألفاظ ألفاظ المتلقي، وأن يجد المبدع الألفاظ معه، وبإزاء ناظره إذا ظفر بالمعنى؛ فهذا يعني أن المبدع لحظة الظفر تلك يكون مسكونا بالمتلقي ... وهذا يعني أن للمتلقي سلطة على النص تبدأ مع بدايات التفكير عند المبدع" (٨). هكذا يدخل المتلقي قبل الإبداع نفسه بإملائه الألفاظ المستعملة على الكاتب (٩). إن هذه النظرية التي تستبعد النص والمؤلف معاً غير مستساغة لا منطقاً ولا عقلاً حتى بالنسبة للنصوص الأدبية، أما تطبيقها على نص ديني كالقرآن الكريم؛ فيعني أنه لا يجوز أن يدرس على أنه كتاب الله بل يجب أن ندرسه، بغض النظر عن صاحبه يجب أن ننسى القداسة التي يستمدها من كونه إلهياً، والنتيجة هي مساواته بكل النصوص أي: أنسنته! ثم إن جعل معنى النص هو ما فهمه القارئ — حسب نظرية التلقي — يعني أن تفسير الرسول صلى

(٥) الفكر الإسلامي قراءة علمية ،محمد أركون،/٢٣١.

(٦) النص والأسلوبية بين النظرية والتطبيق ،عدنان بن ذريل/١٨.

(٧) الماركسلامية والقرآن ،محمد صياح المعراوي /٣٥-٣٥٥.

(٨) العقل العربي في القرآن، ٤٧ .

(٩) مفهوم القراءة عند الحداثين ،د. فاطمة الناصري .

الله عليه وسلم أو ابن عباس رضي الله عنهماأو أي رجل على قارعة الطريق، كل ذلك سواء! لذلك تجد أن أصحاب هذا الاتجاه عندما يحاصرون بدلالات الآيات التي يقاضيها التفسير بالمنهج العلمي؛ يقولون: هذا فهم الطبري والآخر فهم القرطبي ... وهذا تأويلي أنا! وإذا أصبح لكل واحد فهمه، صار عندنا مليار وخمسمائة تفسير للقرآن! وهذا يقتضي أنه ليس هناك مفسر كبير أو جاهل بالتفسير، كل له السلطة في فهم ما يريد بالكيفية التي يريد، بمعنى أن وقت التفسير قد انتهى، وليس هناك في ظل نظرية التلقي إلا القراءات! .(١٠) ولقد حارب المفسرون القدامى مثل هذه الفكرة الفوضوية التي تدعو إلى التسيُّب في فَهم النصوص خصوصاً مع الباطنية ([١١])إذ أصبح " معنى الصلاة هو: موالاة إمامهم، والحج هو: زيارته وإيمان خدمته، والمراد بالصوم هو: الإمساك عن إفشاء سر الإمام دون الإمساك عن الطعام، والزنا عندهم: إفشاء سرهم بغير عهد وميثاق، وزعموا أن من عرف معنى العبادة سقط عنه فرضها، وحملوا اليقين على معرفة التأويل. ([١٢]) فالحداثة بتبنيها لنظرية سلطة القارئ التي تعبث بالنصوص بعيداً عن أي منهج علمي؛ إنما هي حركة باطنية حديثة. ([١٣])إن العلماء اهتموا بالمتلقي، لأن التفسير لا يفترض تغيب ذاتية المفسر، إذ ذكر السيوطي أن الشرط الخامس عشر من شروط المفسر هو: علم الموهبة ([١٤])، كما أنه ليس في الفكر الإسلامي فئة تحتكر التفسير بالمعنى الإكليروسي، ولكن هناك ضوابط؛ لا يفسر القرآن الكريم إلا من امتلكها والتزمها، وشروط لا يقدم على القول في القرآن إلا من توفرت فيه، وبالتالي فهناك مفسِّر ومفسَّر له، لوجود من يمتلك هذه الضوابط ومن لا يمتلكها، علاوة على الحدود المنطقية التي لا يمكن تجاوزها؛ بل لا بد من اعتبارها في جميع أنواع النصوص؛ كلغة النص ([١٥])ومؤلفه، " لأن أي نص أو مفردة – كما يقول الدكتور أحمد الريسوني –يختلف تفسيره ودلالته إذا ما عرف صاحبه، فصاحب النص وسياقه، ثم ألفاظ النص وبناؤه هي أمر لا يمكن إسقاطها، وفي حال أسقطت فإن النص يسقط " ([١٦]) .قد يستند أنصار نظرية التلقيفي دعوة

---

(١٠) المصدر نفسه.

(١١) الفرق في الفرق،عبد القاهر الجرجاني/٢٢.

(١٢) المصدر نفسه

(١٣) المصدرالسابق/٣٠٦.

(١٤) الإتقان في علوم القرآن ،أبو بكر عبد الرحمن السيوطي، ٣٩٩/٢.

(١٥) الصراع بين القديم والجديد في الأدب العربي، محمد الكتاني، ٧٩/١.

(١٦)في حدود فتح النص للتأويل وشروطه، أحمد الريسوني/٨٨.

القرآن إلى تدبر آياته([١٧])، فنقول : صحيح أن القرآن دعا إلى التأمل فيه، ولكن بما أن القرآن مؤسس؛ فمن الأولى أن يؤسس منهجاً لتدبره، ولا يعقل أن يترك الأمر فوضى، خصوصاً في مسألة بهذه الأهمية؛ وهي: منهجية الفَهم، لأنه عندما تتعدد مناهج التناول؛ تتعدد الأفهام، وعندما تكون هذه المناهج نفسها منطلقة من أفهام معنية؛ فإن نتاجها هي فهوم موافقة لمنطلقاتها، وإذا كانت منهجيات تحليل النصوص الحديثة منطلقة من ظروف وملابسات كانت السبب في نشأتها ، فإن تناول القرآن بها سيؤدي إلى إنزال تلك الظروف التاريخية المولدة لتلك المنهجيات على القرآن الكريم. إن تدبر القرآن ليس فوضى؛ بل له قواعد وأصول نابعة منه بكونهمؤسساً ([١٨])، يعني أن الأمر يتعلق بعملية في غاية الدقة والإحكام .

والقرآن الكريم يدعو إلى طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم واتباعه، ومن أهم مظاهر هذا الإتباع والطاعة ما كان في فهم النص بالتأكيد، إضافة إلى أنه مكلف ببيان ما أنزل للناس، لذلك كانت السنَّة من ألزم المصادر في تفسير القرآن بنص القرآن نفسه، وكذلك نفهم الأهمية القصوى للغة العربية في تفسير القرآن الكريم من خلال الآيات الكثيرة التي يصف الله فيها القرآن بأنه عربي. وهناك الكثير من قواعد التفسير المستمدة من اللغة العربية ([١٩]).وإن كان بعض العلماء المعاصرين مثل: الدكتور فريد الأنصاري قد استعمل مصطلح "التلقي"، فإنه بهذا لا يحاول أسلمة نظرية التلقي أو التأصيل لها، وهي بكل هذه الحمولات والدلالات التي تتنافى مع مسلمات الفكر الإسلامي، ذلك أن التلقي الذي قصده في كتابه: " مجالس القرآن: من التلقي إلى التزكية " ، يعني استقبال القرآن الكريم مع التفاعل النفسي والذهني، والحضور الروحي للمتلقي، وفي غياب هذا التفاعل والشهود الروحي لا يُعدُّ الاستقبال تلقياً ، قال تعالى ذكره واصفاً الرسول صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾(سورة النمل –الآية ٦) لأن الرسول كان يستقبل القرآن بكل جوارحه، وكان يكرِّره وراء الملك–جبريل عليه السلام- حتى ضمنه الله تعالى قائلًا: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾(سورة الأعلى-الآية ٦) ([٢٠]) .

---

(١٧) سنوضح دلالته لاحقاً.

(١٨)ينظر:أصول التفسير وقواعده، لخالد بعد الرحمن العك؛ كيف نتعامل مع القرآن لمحمد الغزالي؛ كيف نتعامل مع القرآن العظيم ليوسف القرضاوي ؛ قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عزوجل لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني.

(١٩) الإتقان، للسيوطي، ٣٩٧/١.

(٢٠) ينظر: مفهوم القراءة عند الحدثين ،د. فاطمة الناصري،

لقد برز مفهوم القراءة مع ظهور نظرية التلقي؛ ذلك أن: " النظر في القراءة ناشئ عن الأهمية التي حظى بها المتلقي في النقد الحديث. وقد تبلورت في الغرب بفعل منظرين ... اهتموا بالقارئ وبالعوامل المؤثرة في قراءته، وقد تم هذا الاهتمام بالقارئ بعد التراجع التي عرفته البنيَوية كفاعلية نقدية، مثلت في أول عهدها تحولاً عن النقد الكلاسيكي باعتبارأن النقد محاكاة للواقع الموضوعي، وبعد انحسار الاتجاه النفسي الذي سيجعل النص المبدع انعكاساًللاوعي المؤلف" ([٢١]) .

فهناك إذاً علاقة وثيقة بين مفهوم القراءة في الكتابات المعاصرة التي تتحدث عن النقد الأدبي وبين نظرية التلقي، لأن : " القراءة شدت إليها اهتمام النقد اليوم ، وشددت على دور المتلقي فاعتبرت قراءته إعادة انتاج للنص الذي يقرؤه، بل إنها جعلت النص يفقد شرعية وجوده دون قراءة " ثم إن " الاعتناء بالقراءة والقارئ قد مثل في أحد وجوهه نتيجة لتطور " التأويلية " في الغرب منذ العقود الأولى من هذا القرن، وساعد على هذا؛ تراجع البنيوية في العقود الأخيرة " ([٢٢]) وهناك علاقة أوثق من جهة ثانية بين نظرية التلقي والحداثة؛ بل إن " التلقي لا يعدو أن يكون أحد أهم انتصارات الحداثة وما بعد الحداثة، وكذلك بنقلهما من مجال الاهتمام بالكاتب والنص، إلى المتلقي والقارئ " ([٢٣]).وقد اختلفت النظريات الأدبية وتضاربت في المفتاح الذي يمكن به الدخول إلى النص، لذلك نجد أن " العمر المنهجي الحديث ينطوي على ثلاث لحظات: لحظة المؤلف؛ وتمثلت في نقد القرن التاسع عشر (التأريخي النفسي الاجتماعي)، ثم لحظة (النص) الذي جسدها النقد البنيوي في الستينات من هذا القرن، وأخيراً؛ لحظة (القارئ) أو (المتلقي) كما في اتجاهات ما بعد البنيوية؛ ولا سيما نظرية التلقي في السبعينات منه، وقيل في اتجاهات ما بعد البنيوية: إنها جاءت لتصحح الأخطاء التي وقعت فيها البنيوية وأبرزها الصنمية النصية، وموت المؤلف، وإهمال حركة التأريخ، فجاءت هذه الاتجاهات رد فعل حاد على هذا الانغلاق النصي" ([٢٤]). هذا هو السياق التأريخي الذي ظهرت فيه نظرية التلقي التي رمتنا بمصطلح القراءة. فإذا كان هذا حال النظريات الأدبية في التعامل مع النصوص؛ ما تفتأ أحدها تقف وتستوي على سوقها ، حتى تهجم صاحبتها بالنقض والهدم في بنيانها ، وإذا كنا نستنكر ربط القرآن الكريم

---

(٢١) إبداع القراءة/١٣٦.

(٢٢) المصدر نفسه

(٢٣) الحداثة والتلقي ،عمر عبود،مجلة فكر ونقد،عدد٥٣،سنة٢٠٠٣.

(٢٤)نظرية التلقي: أصول وتطبيقات، بشرى موسى صالح/٣٢.

بكل النظريات العلمية المتعلقة بالطبيعة والكون لاحتمال الخطأ فيها ، وإن ذلك لا يتم إلا بشروط صارمة ([٢٥]) فكيف يكون الحال عندما يتعلق الأمر بالنظريات الأدبية المتضاربة ([٢٦]).

بعد أن استعرضنا مفهوم نظريات التلقي وخطورة تنزيله على القرآن الكريم لما فيه من مزالق التحريف والزيغ عن المنهاج النبوي في الآليات السليمة في فَهم النص القرآني لبيان المعاني والمقاصد؛ نحاول في هذا البحثبيان مفاهيم بعض المصطلحات التي تساعد في كشف الآلية المنهجية في فَهم النص القرآني وطريقة تلقيه وقراءته وتدبره:

أولاً: مفهوم التلقي في اللغة والنصالقرآني .

ثانياً: مفهوم القراءة في اللغة والنص القرآني.

ثالثاً: مفهوم التدبر في اللغة والنص القرآني.

أولاً :مفهوم التلقي في اللغة والنص القرآني:

أولاً: مفهوم التلقي في اللغة:

أوجد النص القرآني للتلقي دلالات ومضامين وردت في القرآن الكريم عبر سوره وآياته، بصيغ فعلية حركية، وأخرى اشتقاقية تحمل في طياتها ديمومة حية. تفصل المعاجم اللغوية القرآنية [٢٧] معاني التلقي عبر الجذر (لقا) بفضائه الواسع ومدلولاته وتصاريفه الكثيرة، إلا أننا سنحاول التركيز على ما ورد من دلالات في اصطلاح النص القرآني للتلقي، والبدء بالإشارة إلى معناه لغوياً ، فـ (لقا): قابل، واللقاء: المقابلة، ولقي الرجل: قابله، أو وجده [٢٨]، وتلقى تعني استقبل ، والتلقي: الاستقبال ، ولقي كل شيء

(٢٥) التفسير أساسياته واتجاهاته،فضل حسن عباس/٦٢٤.

(٢٦) مفهوم القراءة عند الحداثيين ، د. فاطمة الناصري.

(٢٧) لسان العرب ، ابن منظور، مادة (لقا)؛ معجم الألفاظ القرآن الكريم ،المجلد الثاني،٥٨٢ – ٥٩٠؛ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي،/٦٥١؛ معجم المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني،مكتبة الانجلو المصرية/ ٦٨٤ – ٦٩٥.

(٢٨) معجم ألفاظ القرآن الكريم / ٥٨٢

استقبله أو صادفه أو وجده [٢٩]، وتلقى العلم يتلقاه أي: تعلمه وأخذه عنه، وتعني أيضاً تناوله بالحديث، يقال تلقى هذا الموضوع بلسانه، أي خاض في الحديث عنه.[٣٠]

ثانياً :مفهوم التلقي في النص القرآني:

وردت معاني التلقي اللغوية جميعها في القرآن الكريم، ففي قوله تعالى:﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ (سورة ق- الآية ١٧)أي: يستقبل الملكان ما يصدر عن الإنسان من أقوال فيسجلانها. جمعت الآية الكريمة دلالة التلقي بصيغته الفعلية في حركيتها الزمنية المستمرة وصيغته الاشتقاقية في ثبوتها ودوامها لتُمنح صفة مكانية ثنائية للتلقي؛ من خلال كل سلوك وحركة إنسانية عبر اليمين والشمال؛ في ثنائية مثالية في المتلقيين المفطورين على طاعة الله والإخلاص له ومنحهما ثقة الخالق جلَّ ثناؤه، أما قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾(سورة النحل- الآية٦) ، يعني أنه يلقى إليك وحياً من عند الله، أو تلقنه من عند الله [٣١] عز وجلَّ ، جاء التلقي بصيغة فعلية خطاباً مؤكداً للمتلقي الذي هو الرسول صلى الله عليه وسلم، إن ما يتلقاه من نص قرآني من عند الله الحكيم العليم في أعلى دلالة نحوية لغوية، أما القرآن فهو التنزيل في صفته الفقهية ﴿ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴾(سورة طه-الآية٤) و هو نص كلام الله المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، والقرآن صيغة القراءة في أسمى صورها، وتعود صيغته الاشتقاقية من مستوى الجذر قرأ – يقرأ – قراءة فهو: مقروء، ومعنى القرآن: الجمع؛ لأنه يجمع السور فيضمها، وورد في كلامه عزوجلَّ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴾(سورة القيامة- الآية ١٦) ، أي: جمعه وقراءته﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾(سورة القيامة- الآيتان ١٧- ١٨) أي قراءته، فجاءت القراءة وجاء القرآن مؤكداً لفعل القراءة، قال

(٢٩) لسان العرب،محمد بن مكرم بن منظور،إعداد وترتيب يوسف الخياط ونديم مرعشلي،بيروت، مادة لقا .

(٣٠) معجم ألفاظ القرآن الكريم / ٥٨٦ .

(٣١) المصدر نفسه.

ابن الأثير " تكرر في الحديث ذِكرُ القرَّاء والقارئ والقرآن؛ والأصل في هذه اللفظة: الجمع، وسميقرآناً لأنه جمع القصص، والأمر والنهي، والوعد والوعيد؛ والسور بعضها إلى بعض"[٣٢].

إذن كان التلقي ثم كانت القراءة والأمر بالقراءة في أوَّل آية من أوَّل سورة من سور القرآن الكريم﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ﴾(سورة العلق–الآيات ١–٣)، أوَّل تلق للمتلقي الأوَّل: الرسول صلى الله عليه وسلم، أمر بالقراءة لمن لا يعرف القراءة، وفي هذا الأمر تربية وتعليم ومعرفة [٣٣]، فالإقراءباسم الله لأنه يدعو باسمه إلى الاسلام وبدء الدعوة التي تبتدئ صفة الرب فيها بالخلق معنى البدء بالحياة بمرحلة أولية صغيرة ﴿ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ﴾ (سورة العلق– الآية ٢) منشأ صغير حقير، لكن الله رفع هذا الخلق إلى إنسان كامل يُعَلِّم فيتعلم﴿ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ ﴾(سورة العلق– الآيتان٣–٤) إنها نقلة بعيدة بين ذلك المنشأ وهذا المصير، وهي تصور هكذا مفاجأة بلا تدرج وتغفل المراحل التي توالت بين المنشأ والمصير، لتلمس الوجدان لمسة قوية في مجال الدعوة الدينية وفي مجال التأملات الوجدانية ولا تدرك هذه النقلة إلا بالقراءة، بالعلم والتعلم، والوعي والفهم وصولاً إلى الإيمان [٣٤]، فتاريخ القراءة للقرآن هو تأريخ التعلم بطريقة لم يعرفها الإنسان ولم يألفها من قبل، وهو تأريخ لمرحلة بيانية كانت مساراً جديداً لمتلقِّي النص القرآني﴿ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ٤ ﴾(سورة الرحمن–الآيتان ٣–٤) والبيان هو النص القرآني ، الذي نزل بلغة العرب ووفق أساليبهم في التعبير والإفصاح، جامع لمعان مجتمعة الأصول، متشعبة الفروع؛ هي بيان لمن خوطب بها، وتلقاها ممن نزل النص القرآني بلسانه؛ لتحديد علاقة المبنى بالمعنى، والبيان أصول وفروع تربطها المعرفة باللغة [٣٥]، وبين الخلق والبيان تكمن رحلة التعلم فالتلقِّي في النص القرآني عنصر في منظومة لفظية تعبر عن مسألة من أخطر المسائل وأعظمها على مستوى التأريخ البشري، ذلك أن هذه المنظومة تحكي عملية توصيل الرسالة من الخالق جل ثناؤه إلى من اصطفى من

(٣٢) معجم ألفاظ القرآن الكريم/ ٥٨٦؛ وينظر: لسان العرب، ابن منظور،(مادة اقرأ). وينظر مبحث:مفهوم القراءة في اللغة والنص القرآني .

(٣٣) الشعر بين الإيصال والتلقي، إدريس الناعوري، مج الأقلام. ع٢ ١٩٨٨/ ٣٦.

(٣٤) التصوير الفني في القرآن الكريم، سيد قطب، ١٩.

(٣٥) تكوين العقل العربي، محمد عابد الجابري،/ ١٥٧.

البشر لتبليغها للناس كافة [٣٦]، وتأريخ التلقي تتعدد مراحله وتتراءى برهاته ولحظاته، والأدلة قاطعة على التلقي في فترة ما قبل الإسلام، فالتجمعات واللقاءات في سوق عكاظ فقد كان الشعر يلقى ويتلقى وينقد [٣٧]؛ إلا أن القرآن الكريم أوجد فضاءجديداً للتلقي في فَهم النص القرآني، فهو لم يخرج عن كلام العرب، إلا أنه ليس امتداداً له؛ فقد أثبت في الذات السامعة والقارئة، نظاماً في استعمال اللغة، وطريقة جديدة في الإصغاء، حين يكون القرآن مرتلاً؛ وفي القراءة حين يكون القرآن مقروءاً[٣٨] منحتاً النص القرآني صفة البلاغة و الإعجاز، وما قصة إسلام عمر (رضي الله عنه) حين سمع منصتاً: سورة طه وهي تقرأ فأعلن إسلامه، تأثراً بالنص المقروء وتفاعلاً معه، إلاَّ دلالة على أثر تلقي النص القرآني سماعاً، أما الوليد بن المغيرة وهو العارف بلغة العرب وأشعارها – وعلى الرغم من كفره وعدم إيمانه حتى بعد سماعه النص القرآني – إلاَّ أنه كان يعترف أن للقرآن لحلاوة، وأن عليه لطلاوة، وأنه ليحطم ما تحته وأنه ليعلو وما يعلى [٣٩].

طريقتان في التلقي ظلتا تلازمان النص القرآني طوال العصور، ولا تجور إحداهما على الأخرى مهما تعددت وسائل الكتابة وكثر القرَّاء للنص القرآني، فقد منح متلقيه حرية في اكتشاف دلالاته المتجددة فوسعت هذه الحرية لذة الاكتشاف لدى المتلقي، فالأساليب اللغويةوإن أصبحت معطاة بفضل ثباتها في النص، غير أن التمعن في معانيها كل حين يضفي عليها جدة وديمومة، لأن معانيها ممتدة إلى غير نفاد ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾

﴾(سورة الكهف–الآية١١٠) ، فالمتلقي للنص القرآني هو من قرأ القرآن وسمع تلاوته وأدرك جمال اللغة والصياغة فيه، فتلقي النص القرآني آن القراءة وحين سماعها وتأملها بعد ذلك؛ نشاط فكري لغوي [٤٠] تختلف القراءة فيه بين قارئ وآخر، بل تختلف عند القارئ نفسه بحسب أطواره وأحواله فيجرب لغته، ويشغل خياله،ويفهم فهمه[٤١] فهو من أدرك حرية القراءة في مواجهة نص أعجز الخليقة عن الإتيان

---

(٣٦) جمالية الحركة في القرآن الكريم، حكمت صالح وهب، أطروحة دكتوراه مقدمة إلى مجلس كلية الآداب جامعة الموصل/ ٥.

(٣٧) طبقات فحول الشعراء،محمد بن سلام، ، ١/ ٥٦ ، ٢١ ؛ وينظر: الشعر والشعراء، عبد الله بن مسلم ابن قتيبة، تحقيق:دي غويه،دار الثقافة ،بيروت،١٩٥٤/ ١ – ١٠١ .

(٣٨) استقبال النص عند العرب،د. محمد المبارك ١٤.

(٣٩) التصوير الفني في القرآن، سيد قطب/١٣ .

(٤٠) قراءة ما لم يقرأ نقد القراءة، علي حرب ، مج الفكر العربي المعاصر، ع ٦٢ – ٦٣ ، ١٩٨٩ / ٤١.

(٤١) المصدر السابق / ٤١ .

بمثله﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾(سورة الإسراء- الآية ٨٨) فالقارئ له ليس عنصراً مستهلكاً، بل عنصر متفكر فيه، فكان لزاماً أن يتحقَّق الفهم والإفهام للذات السامعة القارئة حسب مستوى الإدراك والوعي، فعلى الرغم مما كان عليه العرب فترة ما قبل الإسلام من جاهلية جعلت القرآن يصفها بالظلمات التي لا تعني فقط عدم العلم وانتفاء المعرفة، بل ربما تعني ما يرافق ذلك من غياب الأفق المستقبلي،فإننا في مقابل ذلك نلمح صورة أخرى حية قوامها حياة فكرية نشيطة، وأسواق للفكر والثقافة، وقدرة على الجدال والمحاجة؛ ولولا ذلك لم يكن القرآن ليخاطب العرب بتلك اللغة الرصينة والصورة البيانية الخلابة، والمعاني السامية،والحجج العقلية، مما يؤكد قدرتهم على التعامل مع هذا النص فهماً واستيعاباً؛ دلالة على مستوى متقدم في التفكير، لولاه لما جادلوا في القرآن وقالوا إنه سحر أو شعر، وبعد تلقي العرب للنص القرآني بدأت تترسخ في الذهن وسائل للفهم، وطرق للإنتاج وأساليب للإقناع، ومقاييس للقبول والرفض والاستدلال على أشياء بالأشياء بواسطة التفسير حتى الرؤية للعصر الجاهلي صارت فيما بعد إطاراً مرجعياً لما قبله وما بعده [٤٢]، فقد نزل النص القرآني بلغة العرب إلاَّ أنه يمتلك تميزاً وفرادة تميزه عن أي نص آخر، بُنية، ونظاماً، وأداءاً، يمثل وحدة واحدة يكمل بعضها بعضاً، فهو نص في النصوص، ونصوص في نص تأتلف، ولا تختلف [٤٣] وقد وصف الله تبارك وتعالى القرآن الكريم بقوله:﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾(سورة فصلت- الآيتان ٤١-٤٢) تتابع دلالته جديدة في كل سياق وهذا الأمر ما كان ليكون لو لم يذهب النص القرآني في معانيه وإعجازه وصوره كل مذهب ولا عجب في ذلك فالمرسل هو الله – سبحانه – وصفته الكمال في كل شيء، وليس أدل على ذلك من قوله: ﴿ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾(سورة الروم -الآية ٢٧) فالنص على مثاله تام لغة، ومطلق دلالة، وفيه ممكناته التي لا تتناهى.

(٤٢) تكوين العقل العربي،الجابري/ ٥٧ – ٥٩ .

(٤٣) منهج التلقي والاستدلال بين أهالي السنة والمبتدعة، أحمد بن عبد الرحمن الصويان، مج البيان، ط٣، ٢٠٠١ / ٥٠ – ٥١ .

أما المتلقي في قراءته للنص القرآني فهو النسبي، وهو الناقص لأنه في تعامله مع النص وفهمه له، إنما يحول فهمه إلى تفسير ومن ثم إلى تأويل، وهذا يعني أنه لا ينتج نصاً جديداً وإنما ينتج نصاً فهمه على النص القرآني الأصل، وهو في ذلك إنما من نقصه ينهل لا من تمام النص؛ فالتفسير ناتج ثقافي قائم على الممكن والنسبي، وحاصل في الإفهام على مقدار اختلافها، فهو رهن بشروط تأريخية وزمانية، وذاتية وإنسانية بينما النص القرآني منتج لا متناه؛ وهذا ما يجعله على الدوام للتأريخ مجاوزاً، وعلى الزمان متقدماً، وأمام الظروف الإنسانية لا خلفها [٤٤]، مما يجعل المعنى في النص القرآني مطلقاً عند المتكلم ونسبياً عند السامع، وتاماً عند الباحث، وناقصاً عند المتلقي، ومتجاوزاً عند المرسل، وثابتاً بالشرط الزماني والإنساني عند المرسل إليه،[٤٥] فقد ذكر الزركشي بهذا الخصوص: أن سهيل بن عبدالله كان يقول:" لو أعطى العبد بكل حرف من القرآن ألف فهم لم يبلغ نهاية ما أودعه الله في آية من كتابه لأنه كلام الله، وكلامه صفته، وكما أنه ليس لله نهاية، فكذلك لا نهاية لفهم كلامه، وإنما يفهم كل مقدار ما يفتح الله عليه"[٤٦].أما ابن قيم الجوزية فرأيه يتعلق بالمتلقي وهو يقسم الدلالة إلى قسمين:

الأول : ويرى فيه أن الدلالة حقيقية. الثاني : يرى فيه أن الدلالة إضافية.

أما الدلالة الحقيقية فتكون تابعة لقصد المتكلم وإرادته،وهذه الدلالة لاتختلف، وأما الدلالة الإضافية فتكون لفهم السامع وإدراكه،وجودة فكره وقريحته،وصفاء ذهنه ومعرفته بالألفاظ ومراتبها.وهذه الدلالة تختلف اختلافاً متبايناً بحسب تباين السامعين في ذلك [٤٧]، ولو عدنا بهذا المنظور إلى نظريات التلقي والقراءة والتأويل، لوجدنا أنه يتماثل معها فيما يخص تغاير الدلالة بين المرسل والمتلقي من جهة، وتغايرها بين المتلقين من جهة أخرى [٤٨]، وفي ذلك دلالة على السبق القرآني مع اختلاف الرؤى والمنظورات،فالنص القرآني بُنيَة تقوم على غير المألوف والعادة،وأداء ينتقل بكائنه الكلامي منأدائه الخاص إلى شكل من أشكال التعبير يصير هو فيه جزءاً منقصد المعنى وخصوصيته وطرفاً تتحدد أدبية النص فيه لصالح النص، وإن هذا يجعل للقرآن تميزا يدرك معه المتلقي أنه أمام نص ليس كسائر النصوص، إنما

(٤٤) القرآن وعلم القراءة ، جاك بيرك، ٢٢.

(٤٥) المصدر السابق / ٢٣.

(٤٦) البرهان في علوم القرآن ، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي،تحقيق:مصطفى عبد القادر عطا،١ /٩ .

(٤٧) إعلام الموقعين عند رب العالمين، ابن قيم الجوزية ، تحقيق: محي الدين عبد الحميد،١ / ٢٥٠ – ٢٥١.

(٤٨) القرآن وعلم القراءة / ٢٣ .

المتكلم فيه الله – جل ثناؤه – فيصير على يقين أنه:﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾(سورة الشورى- الآية ١١).ويمكن للمنظور الدلالي من خلال النص أن يختزل كل ما فيه إلى بؤرة التوحيد كما يمكنه أن ينطلق عودة إلى كل ما فيه بهذه البؤرة فلا ينتهي والحالة هذه توليداً لمعانيه بأساليب تبدو جديدة في كل شيء وإن نزل بلسان العرب ولغتهم [٤٩] إلا أنه نص يحمل هويته الخاصة التي تجعل المتلقي يتمعن فيها، يقرأ ليترسخ الإعجاز في نفسه، وليكون قبوله دائماً على الوعي وإعمال الذهن للفهم طريقاً إلى الهداية الصالحة [٥٠]" فالعلاقة بين النص القرآني والمتلقي تتجاوز علاقة الشخص بما يتلقى إلى علاقة الشخص بما يصير إليه لأنه ينتقل إذ يتلقاه نظاماً وأداءاً من كائنه الشخصي إلى كائنه النصي، ويقوم به عقيدة أساسها التوحيد، وأنه ليصبح في انتقاله هذا بُنيَة رمزية، وكينونة إشارية، يمكن للمرء أن يقرأ فيه كل النصوص التي تنتظم داخل البنية الإسلامية، وكل النصوص التي تفسر دلالياً كينونتها الإشارية، وتعطيها سمتها الخلافي تميزاً وفرادة داخل النسق الإسلامي [٥١]. وعلى وفق هذه المعطيات.

فقد كان التلقي للنص القرآني قائماً على الفهم والإفهام؛ فجاءت مراحل القراءة التفسيرية له مناسبة مع مستويات الفهم والإدراك والوعي، ومع المراحل الزمنية حسب القرّاء؛أعني المفسرين من جهة ومستويات معارفهم واختلافهم في الفهم والإدراك من جهة أخرى.

ثانيا: مفهوم القراءة في اللغة والنص القرآني:

أولا: مفهوم القراءة في اللغة:

القراءة والإقراء والقارئ والقرآن ألفاظ مأخوذة من الجذر (قرأ)، وهو أصل يدل على الجمع و الاجتماع والضم، وكل شيء جمعته فقد قرأته، وسمي القرآن قرآناً لأنه جمع القصص والأمر والنهي والوعد والوعيد والآيات والسور بعضها إلى بعض [٥٢]، و سمي كلام الله الذي أنزله على نبيه صلى الله

(٤٩) القرآن وعلم القراءة / ١٢ .

(٥٠) استقبال النص عند العرب / ٢٤ .

(٥١) القرآن وعلم القراءة ، / ١٤ ، ٢٢ ، ٢٣ .

(٥٢) معجم ألفاظ القرآن الكريم ، ٥٨٦ وينظر : لسان العرب؛ ابن منظور،(مادة اقرأ)

عليه وسلم كتاباً وقرآناً لأنه جمع السور وضمها[٥٣]. وقرأ الشيء قرآنا: جمعه وضمه، أي: ضم بعضه إلبعض،قال الراغب الأصفهاني: " والقراءة: ضم الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل، وليس يقال ذلك لكل جمع، لا يقال: قرأت القوم إذا جمعتهم، ويدل على ذلك أنه لا يقال للحرف الواحد إذا تفوه به قراءة " [٥٤] ."والقرآن هو التنزيل العزيز أي المقروء المكنون في المصاحف قال تعالى:﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ ﴾(القيامة الآية – الآية١٧) أي قراءته، قال ابن عباس رضي الله عنهما: " فإذا بيناه لك بالقراءة فأعمل بما بيناه " وقرأت الكتاب قراءة وقرآنا وقرأه وقرأ به ﴿ فَقَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾(سورة النحل – الآية٩٨): لفظت به مجموعا، أي: ألقيته. وقرأت القرآن عن ظهر قلب أو نظراً فيه، هكذا يقال ولا يقال: قرأت إلا بما نظرت فيه عن شعر أو حديث، وقرأ الكتاب قراءة وقرآناً تتبع كلماته نظراً ونطقاً بها وتتبع كلماته" [٥٥] .

ثانيا: مفهوم القراءة في النص القرآني:

من خلال تتبع الموارد القرآنية لمادة(قرأ) في القرآن الكريم؛ نجد أنها تكرَّرت في ثمانية وثمانين موضعاً. ومما يدل على أهمية هذا الفعل وروده وبصيغ مختلفة على النحو الآتي:

بصيغة الماضي في أربعة مواضع: قرأت:﴿ فَقَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾(سورة النحل – الآية٩٨).

قرأناه:﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ﴾(سورة القيامة – الآية١٨).

قرأه:﴿ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾(سورة الشعراء – الآية١٩٩) .

(٥٣) البحر المحيط،محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي، جماعة من علماء الأزهر،:١ /١٧٨،مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني:١/١٧،النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم،محمد عبد الله دراز، دار طيبة،ط١ ،١٤١٧ /١٠.

(٥٤) المفردات في غريب القرآن /٤٠٠.

(٥٥) لسان العرب، ابن منظور، (مادة قرأ).

وبصيغة المضارع فيأربعة مواضع أيضاً: لتقرأه:﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ (سورة الإسراء- الآية ١٠٦).

نقرؤه:﴿ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ﴾(سورة الإسراء – الآية٩٣).يقرؤون: ﴿ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ﴾ (سورة يونس -الآية ٩٤).وبقوله:﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ ﴾(سورة الإسراء –الآية ٧١).

بصيغة الأمر المسند للمخاطب المفرد في ثلاثة مواضع: اقرأ:﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾(سورة الإسراء – الآية١٤)،﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ﴾(سورة العلق- الآيات ١ – ٣).

وبصيغة الأمر المسند إلى الجماعة في ثلاثة مواضع : اقرأوا:﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ ﴾(الحاقة –الآية ١٩)،﴿ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ﴾(المزمل –الآية ٢٠)،﴿ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾(المزمل –الآية ٢٠) .

وبصيغة المبني للمجهول في موضعين: قرئ:﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾(الأعراف –الآية ٢٠٤)،﴿ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾ ﴾(الانشقاق –الآية ٢١) .

وبصيغة المضارع المسبوق بسين الاستقبال في موضع واحد: سنقرئك:﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ ﴾(الأعلى –الآية ٦).

وبصيغة المصدر (القرآن) على وزن (فعلان) في ثمانية وستين موضعاً.[٥٦]

(٥٦) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ،محمد فواد عبد الباقي /٦٨٥-٦٨٦

وبصيغة قرآنه في موضعين: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ ﴾(القيامة – ١٦) ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ﴾(القيامة – ١٧) .

كل هذه الموارد بصيغها الفعلية والإسمية تؤكد على أهمية قراءة النص القرآني بطريقة ووفق آلية تنعكس على القارئ نفسه بالمعارف الإلهية، والنفحات الإيمانية، والتزكية الربانية، التي تجعل المتأمل يغوص في أعماق دلالات الآيات، ويكشف عن أغوارها، مانحاً إياها من الوجوه والمعاني على قدر صفاءه وإخلاصه مع الله سبحانه وتعالى.ومما يسترعي الانتباه؛ تسمية الله كلامه المنزل قرآنا، والذي ورد (لفظ القرآن) في ثمانية وستين موضعاً بصيغة المصدر على وزن فعلان مرادفاً للقراءة، وسمي به الكتاب المقروء من باب تسمية المفعول بالمصدر، ثم نقل من هذا المعنى المصدري وجعل علماً شخصياً للكلام المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم وقد روي في تسميته قرآنا كونه متلوا بالألسن، كما روي في تسميته كتاباً كونه مدوناً بالأقلام فكلا التسميتين من تسمية الشيء بالمعنى الواقع عليه، وثمة اشتراك في المعنى بين لفظ الكتاب والقرآن لغوياً فمادتا كتب وقرأ تدوران على معنى الضم والجمع مطلقاً[٥٧] . وكلمة (قرآن) وإن صارت علماً مختصاً بكتاب الله فإنها تتضمن معاني القراءة لاشتقاقها من مادة قرأ، وهي أوَّل كلمة أنزلت وتكررت مرتين بصيغة الأمر، فالأمر الأوَّل أعقبه ذكر أوصاف للخالق ترتبط بالإنسان وتكوينه، فيما أعقب الأمر الثاني بذكر صفات للخالق ترتبط بما له صلة بالقراءة والقلم، وهذا يدل على أن هناك قراءتين: الأولى؛ قراءة كونية شاملة لآثار القدرة الإلهية وصفاتها وخلقها للظواهر ذات المعنى؛ هذه القراءة تأتي باسم الله وبوصفه المتفرد به (الخالق)، وأما القراءة الثانية؛ فتتم بمعونة الله وتتجه إلى ما له صلة بالقلم وهو الوحي المنزل المقروء، أي: القرآن، وهذا الربط بين أوَّل كلمة وتسمية ما يأتي به الوحي من مشتقات هذه الكلمة له دلالة مركزية في منهجية فَهم هذا النص المنزل،وإن فعل القراءة ليس خاصاً بالقرآن الكريم بل إن القرآن الكريم نفسه أشار إلى كون كل كتاب يقرأ، والإنسان يوم القيامة يقرأ كتابه: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ ﴾ (الإسراء – ١٤) و ﴿ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ ﴾(الإسراء – ٧١) و﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴾ (الحاقة – ١٩) ([٥٨]). وظاهر من السياقات القرآنية أن القراءة ليست مجرد حركة صوتية؛ إنما تحصيل للمعنى من خلال استجماع ما في الحروف والكلمات

(٥٧) النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن الكريم ، محمد عبدالله دراز / ١٢– ١٣ .

(٥٨) المستويات القرآنية لمنهج التعامل مع النص، د عبد الرحمن حللي، موقع مركز الدراسات القرآنية على . شبكة المعلومات

من معان تدل عليها؛ سواء بالنظر فيها أو بنطقها، وهي إذن تتجاوز التلفظ والأداء لترتقي إلى الفهم والجمع الذهني للمعاني.

ثالثا :مفهوم التدبر في اللغة والنص القرآني:

أولا: مفهوم التدبر في اللغة: من خلال تتبع معاني كلمة التدبر الواردة في المعجم العربي تبيَّن لنا أن مادة (تدبر) المأخوذة من الفعل (دبر)، والدال والباء والراء أصل هذا الباب، وجله في قياس واحد، وهو آخر الشيء [٥٩]. ودبّر الأمر وتدبّره : نظر في عاقبته، واستدبره: رأى في عاقبته ما لم يرى في صدره، وعرف الأمر تدبراً أي بآخره، وفلان ما يدري قِبال الأمر من دباره، أي: أوله من آخره. ويقال: إن فلاناً لو استقبل من أمره ما استدبر لهدي لوجهة أمره، أي: لو علم في بدء أمره ما علمه في آخره لاسترشد لأمره. والتدبر:أن يتدبر الرجل أمره ويدبره، أي: ينظر في عواقبه [٦٠].والتدبر:النظر في عاقبة الشيء.[٦١] وفي التعريفات: " التدبر: عبارة عن النظر في عواقب الأمور، وهو قريب من التفكر، إلا أن التفكر تصرّف القلب بالنظر في الدليل، والتدبر تصرّفه بالنظر في العواقب"[٦٢].

وقد استعمل في كل تأمل يقع من الإنسان عن حقيقة الشيء أو أجزائه أو سوابقه أو لواحقه أو أعقابه. والتدبر: ورد بصيغة التَّفعل، ليدل على تكلف الفعل، وحصول بعد جهد، وهو بمحض حصول النظر في الأمر المتدبر مرة بعد مرة [٦٣] .

---

(٥٩) معجم مقاييس اللغة، ٢٦٦/٢.

(٦٠) لسان العرب، ابن منظور، مادة (دبر)

(٦١) التحرير والتنوير،ابن عاشور، ١٣٧/٣.

(٦٢)التعريفات، علي بن محمد الجرجاني/٤٣.

(٦٣) ينظر: التحرير والتنوير١٣٧/٥، الكليات،أبو بقاء أيوب بن موسى الكفوي /٢٣٩.

ثانياً: مفهوم التدبر في النص القرآني:

عند تقصي الموارد القرآنية لمادة التدبر نجدها وردت في أربعة مواضع:

موضعين بصيغة المضارع المسند إلى الجمع المذكر السالم في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾(سورة النساء – الآية ٨٢)، وقوله ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾(سورة محمد – الآية ٢٤) .

وموضعين بصيغة المضارع المجزوم مرة بأداة جزم (لم) في قوله تعالى﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾(سورة المؤمنون– الآية ٦٨)،ومرة مجزوم بلام الأمر ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾(سورة ص– الآية ٢٩) .

وقد أجمع المفسرون للآيات الأربع بأن معنى التدبر: هو التأمل في معاني القرآن وآياته، والتبصر والتفكر بما فيه لمعرفة التأويلات الصحيحة والمعاني المستنبطة [٦٤].

قال الشنقيطي في حديثه عن آية سورة ص" أمر الله أن يتدبر الناس آياته، أي: يتفهموها ويتعقلوها ويمعنوا النظر فيها حتى يفهموا ما فيها من أنواع الهدى" [٦٥]، أما في حديثه عن آية سورة محمد "ومعلوم أن كل من لم يشتغل بتدبر آيات هذا القرآن العظيم أي: تصفحها وتفهمها، وإدراك معانيها والعمل بها، فإنه معرض عنها، غير متدبر لها، فيستحق الإنكار والتوبيخ المذكور في الآيات إن كان الله أعطاه فهما يتدبر به على التدبر" [٦٦]. أما الزمخشري فإنه يشير إلى أن المراد بالتدبر لآيات القرآن الكريم: "التفكر فيها، والتأمل الذي يؤدي إلى معرفة ما يدبر ظاهرها من التأويلات الصحيحة والمعاني الحسنة لأن من أقتنع بظاهر المتلو لم يحل منه بكثير طائل وكان مثله كمثل من له لقحة درور لا يحلبها، ومسمرة نثور لا يستولدها "([٦٧])

---

(٦٤) مفاتيح الغيب،محمد بن عمر الرازي، المكتبة التوفيقية،القاهرة ،٢٠٠٣ ، ٣٠٠/٥ ، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير،محمد بن علي الشوكاني، ، ١٨٠/٢، التحرير والتنوير، ابن عاشور،١٣٧/٥.

(٦٥) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ،محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي،/٩.

(٦٦) المصدر نفسه

(٦٧) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ،جار الله محمد بن عمر الزمخشري،١٧/٦.

والعجيب أن آيتين من الآيات الأربع نزلت في سياق المنافقين،وهما: قوله تعالى:﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾(النساء الآية – ٨٢) وقوله تعالى:﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ (سورة محمد–الآية ٢٤) قال ابن عاشور :" المراد بالتدبر معنيين: أحدهما: أن يتأملوا دلالة تفاصيل آياته على مقاصده التي أرشد إليها المسلمين ، أي: تدبر تفاصيله، وثانيهما: أن يتأملوا دلالة جملة القرآن الكريم ببلاغته على أنه من عند الله، وأن الذي جاء به صادق" [٦٨]. ويقول الشيخ السعدي" أنه لا يتدبر هؤلاء المعرضون لكتاب الله، ويتأملونه حق التأمل، فإنهم لو تدبروه لدلهم على كل خير، ولحذَّرهم من كل شر، ولملأ قلوبهم من الإيمان، وأفئدتهم من الإيقان ، ولأوصلهم إلى المقاصد العالية ، والمواهب الغالية ، ولبيَّن لهم الطريق الموصلة إلى الله وإلى جنته ومكملاتها ومقدساتها، والطريق الموصلة إلى العذاب، وبأي شيء تحذر، ولعرفهم بربهم وأسمائه وصفاته وإحسانه، ولشوقهم إلى الثواب الجزيل، ورهبهم من العقاب الوبيل "[٦٩] .

في حين جاءت آيتان في سياق الكفار وهما: قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾(سورة المؤمنون – الآية٦٨)، وقوله تعالى:﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾(سورة ص–الآية ٢٩) وهذا يشير إلى أن الأمر بالتدبر غير مقتصر على المسلمين، بل يشمل الكفار أيضاً. قال الطبري: " يقول الله تعالى ذكره أفلم يتدبر هؤلاء المشركون تنزيل الله وكلامه، فيعلموا ما فيه من العبر، ويعرفوا حجج الله التي احتج بها عليه فيه".[٧٠] وبيَّن الإمام الشوكاني في تفسيره لقوله تعالى:﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ ﴾ أن الله سبحانه وتعالى بيَّن أن سبب إقدامهم على الكفر هو عدم تدبر القرآن؛ فإنهم لو تدبروا معانيه لظهر لهم صدقه وآمنوا به وبما فيه" [٧١].

ومن خلال ما تقدم يتبيَّن لنا أن تدبر القرآن لا يكون إلا بالتأمل؛ وأن محل التأمل هو مدلولات الآيات، وإن الغاية الأساسية من التدبر؛ في الهداية والاعتبار، وهو مبني على معرفة تفسير الآيات وفهم

---

(٦٨) التحرير و التنوير ،ابن عاشور، ١٣٧/٥.

(٦٩) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، ٥٥٤.

(٧٠) جامع البيان في تأويل آي القرآن ،محمد بن جرير الطبري، ٥٦/١٩.

(٧١) فتح القدير ،الشوكاني :١٨٠/٢.

المعاني. ويمكن أنيعبر عنها بطريقة أخرى وهي أن التدبر هو التفكر بعمق في القرآن الكريم والتأمل في ألفاظه وأساليبه ومعانيه وآياته حرفاً حرفاً ، كلمةً كلمةً، جملةً جملةً، ومقطعاً مقطعاً، وجزءاً جزءاً،وسورة سورةً، وقصةً قصة، ومثلاً مثلا، وأمراً أمرا، ونهياً نهيا، من كل إنذار أو موطن تخويف ووعيد، وفي كل موطن تبشير أو وعظ، أو موطن إشارة أو تكليف([٧٢]) .

أنواع القراءات التدبرية للنص القرآني:

أولاً:القراءة التدبرية العملية:

هي القراءة التي تهدف إلى تطبيق التوجيهات والأحكام القرآنية في جميع مناحيها الدلالية وتحويلها إلى واقع سلوكي يظهر على سمت القارئ في سلوكه وأفكاره وأخلاقه وتعاملاته.

لذلك ينبغي للقارئ أن يقرأ القرآن الكريم وهو يستحضر نية العمل به؛ فيقف عند آياته وينظر ماذا تطلب منه، هل أمر يؤمر به،أو نهي فينتهي عنه، أو فضيلة يدعى للتحلي بها، أو خطر يحيق به يحذر منه، وهكذا فإن القرآن يكون الدليل العملي لتشغيل النفس وصيانتها[٧٣].قال الإمام الحسنالبصري: " أُمر الناس أن يعملوا بالقرآن، فاتخذوا تلاوته عملا "[٧٤] أي: اتخذوا قراءته غاية من غير تطبيق لأحكامه ولا التدبر لآياته. وعن أبي عبد الرحمن السلمي قال: "عن عثمان بن عفان وابن مسعود وأبي بن كعب رضي الله عنهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يُقرِؤهم العشر، فلا يجاوزونها إلى عشر أخرى حتى يتعلموا ما فيها من العمل؛ فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً "([٧٥]). قال تعالى:﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾(سورة البقرة- الآية ١٢١) قال ابن عباس رضي الله عنهما: " يتبعونه حق إتباعه " [٧٦] . وعن ابن مسعود رضي الله عنه: " أن يحل حلاله، ويحرم حرامه، ولا يحرفه عن مواضعه" [٧٧] وقال مجاهد:" يعملون به حق عمله "[٧٨] . ففسر التلاوة بالعمل.والتلاوة تختص

([٧٢])موقع ملتقى طالبات العلم ، صفحة تدوين فوائد تدبر القرآن.

([٧٣]) مفاتح تدبر القرآن والنجاح في الحياة، د. خالد بن عبد الكريم اللاحم، /٤١.

([٧٤]) مدارج السالكين ، ابن القيم، ٤٥١/١

([٧٥]) جامع البيان في تأويل أي القرآن،الطبري، ٦/١،الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٣٩/١.

([٧٦]) جامع البيان ، الطبري/٥٦٦

([٧٧]) المصدر نفسه:

([٧٨]) تفسير مجاهد ،أبو الحجاج مجاهد بن جبر المخزومي/٢١٢.

بإتباع كتب الله المنزلة تارة بالقراءة وتارة بالارتسام لما فيها من أمر أو نهي وترغيب وترهيب أو ما يتوهم فيه ذلك وهي أخص من القراءة، فكل تلاوة قراءة، وليس كل قراءة تلاوة، فقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا ﴾(سورة الأنفال – الآية ٣١) فهذا بالقراءة، وقوله تعالى:﴿ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾هذا بالإتباع له بالعلم والعمل، ولا عمل إلا بعلم وفهم، فالفهم هو المقصود الأكبر من القرآن الكريم ومعرفة مراد الله تعالى ﴿ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾(سورة ص–الآية ٢٩). وإذا كان العمل هو الترجمة الحقيقية لمقصد القرآن؛ فإن فهم القرآن هو مفتاح العمل.فالقراءة المطلوبة هي قراءة التدبر والفهم والعمل بمقتضاه فإن فعلت ذلك فقد تحقق الغاية القصوى التي ليس وراءها مرمى.[٧٩]

والقراءة بمفهومها الجديد تدعو –فضلا عن التفاعل وإتقان عدد من المهارات التي يقوم بتطبيقها– على النصوص جميعها فترى في القارئ شخصاًفاعلاً يقوم ببناء المعنى خلال قيامه بالتكامل بين المعرفة الجديدة والقائمةوالاستعمال المرن للاستراتيجيات للتعجيل والعرض المتكرر للمحافظة على الفهم .. وهذا ما يطلق عليه القراءة التفاعلية([٨٠]) لكن مع ذلك فإن ما ذكره علاء القرآن أدق من مما قاله علماء التربية المعاصرون، وأعمق في الفهم وأكثر إنتاجاً وتفاعلاً إذ أنهم نظروا إلى القراءة نظرة أكثر تفاعلية يقوم القارئ فيها بأكثر من بناء المعنى،وهو تحويل المعنى إلى واقع ومنتج؛ فهي قراءة عملية منتجة ملزمة،([٨١]) ويمكن تسميتها أيضاً بالقراءة المحركة، كما يقول الشيخ يوسف القرضاوي:"لابد من جعل القرآن يتحول في حياتنا إلى طاقة محركة، أما إن يوضع في المتاحف أو المكاتب للبركة، أو أن نفتح المصحف ونقرأ منه آية أو آيات وينتهي الأمر؛ هذا لا يجوز". ([٨٢])

فالقراءة العملية هي القراءة التي يحاول القارئ استيعاب المقروء حسب ثقافته وإمكاناته العلمية للتفاعل مع النص القرآني من أجل فهم دلالات الآيات لغرض التحلي بما فيها من قيم ومبادئ سامية. لذا تتفاوت مستوى استجابة القرَّاء من الفهم والعمل والتطبيق الفعلي والتحلي بهذه المعاني حسب مستوى

([٧٩]) أبرز أسس التعامل مع القرآن، د. عيادة أيوب الكبيسي، ، أنواع التلاوة الفاعلة، د. إبراهيم محمود إبراهيم، بحث مقبول للنشر في مجلة كلية العلوم الاسلامية –جامعة الموصل /٢٤–٢٥.

[٨٠])المصدر نفسه.

[٨١])المهارات القرآنية والكتابية طرائق تدريبها واستراتيجياتها، د. راتب قاسم عاشور وآخرون، دار المسيرة –عمان، ط١، ٢٠٠٠/٦٣.

(٨٢) كيف نتعامل مع القرآن /٧٨.

الوعيوالثقافة وآليات الفهم لدى القارئ، فكلما كان القارئ يملك مهارات للتفاعل مع النص كانت استجابته العملية أعمق.

ثانيا :القراءة التدبرية المقاصدية:

إن القرآن الكريم رسالة الله إلى العباد، وهو مرتبط بمقصد مهم هو تحقيق هداية البشر، لذلك لا يمكن أن يكون مشرعاً أمام كل القراءات، ومن ثم فإنه لا يمكن أن يحتمل من القراءات إلا ما كان محققاً لمقصد الوقوف على مضمون الرسالة الربانية، والذي حدَّده علماء التفسير في تعريفهم للتفسير بقولهم: "علم يبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية"([٨٣]). ويستفاد من ذلك أن القراءة يجب أن تكون مقاصدية، لأننا لا نقرأ القرآن من أجل القراءة كما لا يمكن أن نجعله مفتوحاً أمام أية قراءة لأن الهدف سيضيع منا، ألا وهو تعبيد الحياة لله رب العالمين، ومن هنا فالإنسان يقرأ القرآن الكريم بهدف معرفة الرسالة الربانية ليحقق التواصل بينه وبين الله تعالى عن طريق معرفة الأوامر والنواهي الإلهية، فيعمل على التزامها وتطبيقها في الحياة ليسعد في الدنيا بحياة آمنة مطمئنة، وليفوز برضا الله تعالى في الآخرة.[٨٤]

والقراءة المقاصدية هي قراءة إيجابية تحفظ للقرآن الكريم خصوصياته، وتحقق مقاصده لكونه كتابهداية ومنهاج وشريعة وأحكام، فأية قراءة لا تحترم هذه الخصوصيات هي قراءة غير منطقية؛ خاصة إنكانت موجهة بخلفيات آيديولوجية وثقافية كما قامت بتنزيلات على القرآن الكريم مما يبين أن غرضها لم يكن دراسة القرآن الكريم – كما يدعي أصحابها – بقدر ما كان التشكيك فيه والتشكيك في تواتره والتشكيك في صلاحيته للعصر الحديث والتجرؤ على معاملته كسائر النصوص البشرية.

إن القارئ أو الباحث في القرآن الكريم مدعو إلى الإفادة من المناهج الحديثة من لسانيات وعلم اجتماعوتاريخ ومعرفة وعلم الإنسان، ولكن مع استعمالها جميعاً استعمالاً علمياً يراعي خصوصية القرآن الكريم دون خلفيات مسبقة ويهدف للوصول إلى الحقيقة وليس لهدف آخر علماً أن الدين لله وأن المعرفة البشرية نسبية، وأن اجتهاد الإنسان محدود بالزمان والمكان، بل إن تبني هذه المناهج الحديثة والإفادة منها وفق شروط علمية وموضوعية يمكّننا من فهم تراثنا التفسيري واستيعابه ثم استبطانه، وأخيراً

(٨٣)الكليات،للكفوي/٢١٦.

([٨٤]) القراءة المقاصدية لا الحداثية للقرآن الكريم ، أ . د .خديجة أبكر، شبكة ضفاف لعلوم اللغة العربية .

الإبداع فيه عن طريق الإضافة العلمية، واكتشاف ووجوه من الإعجاز في القرآن الكريم في العلوم جميعها.فنحن مطالبون بهذا النوع من القراءة التي تساعدنا في الوصول إلى معرفة مراد الله في خطابه، وإحالته إلى واقع عملي كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثالثا: القراءة التدبرية المحورية:

هذا النوع من القراءة ربما يتضح من التسمية؛ هو التمحور والتركيز على موضوع معين، أو ظاهرة أسلوبية معينة في القرآن الكريم، والتخصص فيها بحيث يحاول القارئ أو الباحث قراءة القرآن الكريم من خلال جمع واستقصاء آيات معينة تتعلق بموضوع البحث أو التخصص الذي يرغب الكتابة عنه.وهذه القراءة مهمة جداًلا سيما في عصرنا لأنه عصر التخصص، إذ نرى كل إنسان قد تخصص في مجال معين أو فرع من فروع المعرفة، لأن زمن أن يكون الإنسان – سواء أكان قارئاً أو باحثاً – موسوعة في مجالات العلم المختلفة قد انقضىإذ أن مجالات العلم قد تطورت تطوراً كبيراً، وصار لكل فرع من فروع المعرفة فروع كثيرة وتوسعت العلوم وصار التخصص أمراً ملحاً في هذا العصر، فهناك من يتخصص بالعلوم الطبيعية، وهناك من يتخصص بالعلوم الإنسانية، ويقع ضمن هذه العلوم فروع أخرى دقيقة، فالعلوم الإسلامية فيها علم العقيدة وعلم الفقه وعلم أصول الفقه وعلم التفسير وغيرها من العلوم، ولكل علم من هذه العلوم مفاهيم ومبادئ ومصطلحات وآليات خاصة بها، فالمتخصص في العقيدة له قراءة لآيات العقيدة الواردة في القرآن الكريم، وقدرة على الفهم والتحليل أعمق من آخر اختص بعلم الفقه مثلاًإذ أحاط هو الآخر بآيات الأحكام الواردة في القرآن الكريم ربما أكثر ممن اختص بأصول الفقه الذي يعنى باستنباط الأحكام من أدلتها الأصولية.

رابعا: القراءة التدبرية الاستنباطية:

هذا النوع من القراءة يتطلب إعمال العقل واستحضار الشواهد والأصول، وهو ليس بالأمر الهيِّن السهل، إذ يحتاج إلى صبر على الاستقراء،ومطاولة في الاستخبار، وتريّث في التصفّح، وهو جمع بين ظاهر النص وباطنه، فلا تعتصر الظواهر إلى حد الجمود الحرفي، ولا يتوغل في البواطن إلى حد تعطيل النصوص وإهدار مقاصدها، وهذا مذهب جماهير العلماء، وقد أيّده الإمام الشاطبي بقوله "إن يقال اعتبار الأمرين جميعاً على وجه لا نحلّ فيه بالنص ولا بالعكس، لتجري الشريعة على نظام واحد لا اختلاف فيه ولا تناقض وهو الذي أمّه كثير العلماء الراسخين فعليه الاعتماد في الضابط الذي يعرف به

مقصد الشرع"([٨٥]) والاستنباط في دلالته اللغوية هو الاستخراج، استفعال من أَنْبَطْتُ كذا ([٨٦]) ومنه قوله تعالى: ﴿ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ ﴾(النساء: من الآية٨٣) أي:يستخرجونه([٨٧]).ويَظْهَرُ من استعمالات العلماء لمادة نبط؛ أن لفظ الاستنباط في اللغة يستعمل لكل ما أُخْرِجَ أو أُظْهِرَبعد خفاءٍ. ويدل على ذلك صراحةً قول الإمام الطبري: "وكل مستخرج شيئاً، كان مستتراً عن أبصار العيون، أو عن معارف القلوب؛ فهو له مستنبط"([٨٨]) "كل ما أُظهر بعد خفاءٍ فقد أُنْبِطَ واسْتُنْبِطَ، وقيل: وكل شيء أظهرته بعد خفائه، فقد أنبطته واستنبطته"([٨٩]).ويتبين مما سبق أن معنى الاستنباط في اللغة هو: الاستخراج أو الإظهار بعد الخفاء. وأما اصطلاحاً فالاستنباط: مختصٌّ باستخراج المعاني من النصوص([٩٠]) وعرّفه الزمخشري : "بما يستخرجه الرجلُ، بفضلِ ذهنِه، من المعاني والتدابيرِ، فيما يَعْضُلُ ويُهِمّ" ([٩١]).وقيل هو: استخراج ما خفي من النص بطريق صحيح([٩٢]).فالقراءة الاستنباطية هي القراءة التي يتطلب من صاحبه إعمال الذهن في استخراج ما خفي من معاني في النصوص وبين الاستنباط والتدبر علاقة ترابطية تكاملية لأن التدبر أصل الاستنباط، فلا يمكن الاستنباط من النص قبل تدبره والتأمل في معانيه([٩٣])،قال الإمام ابن القيم: " والمقصود تفاوت الناس في مراتب الفهم في النصوص، وأن منهم من يفهم من الآية حُكْماً أو حُكْمَيْن، ومنهم من يفهم منها عشرةَ أحكام، وأكثر من ذلك، ومنهم من يقتصر في الفهم على مجرد اللفظ، دون سياقه، ودون إيمائه، وإشارته، وتنبيهه، واعتباره

---

(٨٣) مقاصد الشريعة الإسلامية،ابن عاشور /٢٠،النص القرآني من تحافت القراءة إلى أفق التدبر،الريسوني/٥٠٢-٥٠٣

(٨٤) لسان العرب، ابن منظور، مادة (نبط) .

(٨٥) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني/٧٨٨

(٨٦) جامع البيان، الطبري، ٤ / ١٨٤ .

(٨٧) المصدر نفسه.

(٨٨) أدب القاضي، أبو الحسن علي بن محمد الماوردي، ١ / ٥٣٥،

(٨٩) الكشاف، الزمخشري، ٢ / ١١٧ .

(٩٠) منهج الاستنباط من القرآن الكريم ، د فهد بن مبارك بن عبد الله الوهيبي، رسالة ماجستير ، منشور على موقع المؤلف: www.almhbi.net

([٩٣]) تحرير معنى التدبر عند المفسرين، د. فهد بن مبارك بن عبد الله الوهيبي،جامعة طيبة،قسم الدراسات الاسلامية، منشور على موقع المؤلف : www.almahbi.net

."(٩٤)

وقال ابن عاشور: "وإنك لتمرُّ بالآية الواحدة، فتتأملها، وتتدبرها، فتنهال عليك معانٍ كثيرة، يسمح بها التركيب، على اختلافِ الاعتبارات في أساليب الاستعمال العربي، وقد تتكاثرُ عليك، فلا تك مِنْ كثرتها في حَصَر، ولا تجعل الحملَ على بعضها، منافياً للحمل على البعض الآخر، إنْ كان التركيبُ سمْحاً بذلك"(٩٥). و التدبر أيضاً يعم العلماء وغيرهم، بينما الاستنباط خاصٌّ بأولي العلم.

ومن لطيف التناسب بين الآياتالدالة على هذا الأمر؛ أن آية الاستنباط جاءت عقب آية التدبر كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ ﴾(سورة النساء- الآية ٨٣). فوجه الأمر بالتدبر للعموم، وخصَّ الاستنباط بأولي العلم.فالقراءة التدبرية الاستنباطية تعلو درجات القراءة الأخرى لأنها تخص أولي العلم الذين رفعهم الله تعالى، فهي بهذا القياس أعلى درجات القراءة وأزكاها وأنماها، وهي قراءة وارفة الظلال لا يستطيعها إلا الخواصّ.

أهم نتائج البحث

١- الحذر من النظريات الحديثة وتطبيقها على النص القرآني في تقديم قراءات جديدة للقرآن الكريم التي نشأت في مجتمعات وبيئات ذات مرجعيات فكرية وعقدية تختلف وتتباين مع مرجعياتنا الإسلامية المنبثقة أصلاً من القرآن الكريم والسنة النبوية.لأن من أولويات القراءات المعاصرة وخططها ومراميها إقصاء القرآن الكريم -بوصفه روح الأمة- عن مسرح الحياة، وحصره في الطقوس الشعائرية حتى يفسح المجال للقيم الغربية أن تتصدر موقع الحاكمية وتظفر بسلطة المرجعية،مع التقدير لبعض المناهج الحديثة التي تزخر بإمكانات كبيرة

(٩١) إعلام الموقعين، ابن القيم، ١ / ٢٦٧.

(٩٢)التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١ / ٩٧ .

يمكنالإفادةمنها والاستمداد في إضاءة بعض جواهر/ أو معاني النص القرآني كعلم الدلالة الحديث؛ الذي أصبح قطب الرحى في البحوث اللغوية المعاصرة .

٢- العلاقة بين النص القرآني والمتلقي تتجاوز علاقة الشخص بما يتلقى إلى علاقة الشخص بما يصير إليه لأنه ينتقل إذ يتلقاه نظاماً وأداءً من كائنه الشخصي إلى كائنه النصي، ويقوم به عقيدة أساسها التوحيد، وأنه ليصبح في انتقاله هذا بُنية رمزية وكينونة إشارية يمكن للمرء أن يقرأ فيه كل النصوص التي تنتظم داخل البُنية الإسلامية وأنّ التلقي للنص القرآني قائم على الفهم والإفهام فجاءت مراحل القراءة التفسيرية له مناسبة مع مستويات الفهم والإدراك والوعي، ومع المراحل الزمنية حسب القرّاء،أعني المفسرين من جهة ومستوياتمعارفهم واختلافهم في الفهم والإدراك من جهة أخرى للنص القرآني.

٣- إن مفهوم القراءة للنص القرآني تعني الفهم لمراد الشارع الحكيم ومقاصده حسب النص الموقوف بالتنزيل، وذلك ما اشتغل عليه المفسرون ولم يألوا جهداً في توضيح تلك المعاني واقتناصها وتقصيها وتهدف إلى تطبيق التوجيهات والأحكامالقرآنية في جميع مناحيها الدلالية وتحويلها إلى واقع سلوكي يظهر على سمت القارئ في سلوكه وأفكاره وأخلاقه وتعاملاته،أما تفكيك النص والعبث بمقدراته بمفهوم القراءة الحديث فتلك آلية لا يمكن الاجتراء بمثلها على القرآن الكريم.

٤- إن مفهوم القراءة للنص القرآني يقتضي السير على نهج القراءة التدبرية التي تعقب الفهم السديد لمقاصد الوحي، والغوص التام في مرادات هديه وليس مجرد التلاوة والترديد؛ بل تتعدى إلى استخراج المعاني وملاحظة المقاصد،وتبين علل التشريع على ما يقتضه لفظ التدبر لغة فإنه يعني الالتفات إلى أدبار الأمور أي عواقبها ومآلاتها، وهذا لا يستقيم إلا بالقراءة المقاصدية والنظر الشمولي.

٥- التأكيد على ضبط قراءة القرآن الكريم بقواعد علمية رصينة وتأويله لاسيما ما ورد في تراثنا الإسلامي من ضوابط وشروط ومؤهلات لمن يتصدى لذلك مع مراعاة حاجة العصر والتي تستوجب الجمع بين الإرث التفسيري واستحضاره استحضاراً واعياً ومواكبة الثقافة المتجددة وفقه العصر.

٦- إن تدبر القرآن الكريم من أشرف الأعمال العلمية للعقل وأجلّها، ومن أوضح السبل وأدلّها لمعرفة أصول الدين وثوابته، وأن الغاية من إنزال الله عزوجل للقرآن الكريم أن يتدبر الناس آياته لاسيما أنه معين لاينضب فيوض معانيه، ولكن هذه المعاني لا يقتبس منها إلا المتدبرون لآياته، وليس الغرض من التدبر مجرد الترف العلمي، والافتخار بكشف المعاني و تحصيل المعرفة، إنما وراء الفهم غرض التذكر والعظة والعمل بموجب العلم والتفكر الشامل الواصل إلى أواخر دلالات الكلم ومراميه.

المصادر والمراجع

١. أبرز أسس التعامل مع القرآن، د. عيادة أيوب الكبيسي، دار البحوث للدراسات الإسلامية،دبي ،ط١ ،١٩٩٧.

٢. أنواع التلاوة الفاعلة، د. إبراهيم محمود إبراهيم، بحث مقبول للنشر في مجلة كلية العلوم الإسلامية جامعة الموصل لعام ٢٠١٢.

٣. استقبال النص عند العرب،د. محمد المبارك، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،بيروت،ط١، ١٩٩٩.

٤. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن،محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، تحقيق:محمد عبد العزيز الخالدي، الكتب العلمية،ط١٤٠٦،١.

٥. إعلام الموقعين عن رب العالمين،ابن قيم الجوزية ،تحقيق:محمد محي الدين عبد الحميد ،المكتبة العصرية، بيروت ،١٤٠٧.

٦. إقراء القرآن الكريم: منهجه وشروطه وأساليبه وآدابه،دخيل بن عبد الله الدخيل،مركز الدراسات والمعلومات القرآنية- جدة،٢٠٠٨.

٧. البحر المحيط،محمد بن بهادر بن عبدالله الزركشي،جماعة من علماء الأزهر،دار الكتبي،ط١،١٤١٤.

٨. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي،تحقيق:مصطفى عبد القادر عطا،دار الكتب العلمية،بيروت،ط١، ١٩٨٨ .

٩. التحرير والتنوير، محمد بن الطاهر عاشور،دار سحنون للنشر والتوزيع،تونس.

١٠. تحرير معنى التدبر عند المفسرين، د فهد بن مبارك بن عبد الله الوهيبي،جامعة طيبة،قسم الدراسات الاسلامية،موقعه: www.almahbi.net

١١. التصوير الفني في القرآن الكريم،سيد قطب،دار المعارف، مصر،١٩٥٩.

١٢. التعريفات، علي بن محمد الجرجاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت،ط١،٢٠٠٣ .

١٣. تفسير مجاهد،أبو الحجاج مجاهد بن جبر المخزومي،تحقيق:د. محمد عبد السلام أبو النيل،دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر،ط١، ١٩٨٩ .
١٤. تكوين العقل العربي،محمد عابد الجابري،مركز الدراسات الوحدة العربية،بيروت،ط٧،١٩٨٨.
١٥. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، الرياض، ط٢، ٢٠٠٥.
١٦. جماليات الحركة في القرآن الكريم،حكمت صالح وهب،أطروحة دكتوراه، جامعة الموصل،٢٠٠٢.
١٧. جامع البيان في تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري،مطبعة البابي الحلبي،القاهرة،١٩٥٤.
١٨. الجامع لأحكام القرآن،محمد بن احمد القرطبي،دار إحياء التراث العربي، بيروت،١٩٦٦.
١٩. الشعر بين الإيصال والتلقي،إدريس الناعوري،مج الأقلام، ع٢، ١٩٨٨.
٢٠. طبقات فحول الشعراء، محمد ابن سلام،دار النهضة العربية،بيروت،١٩٦٨.
٢١. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير،محمد بن علي الشوكاني،دار الفكر ،بيروت، د ت.
٢٢. الفكر الإسلامي قراءة علمية،محمد أركون ترجمة:هاشم صالح، دار الساقي،لندن،ط٢،١٩٩٥.
٢٣. القراءة المقاصدية لا الحداثية للقرآن الكريم، أ. د. خديجة أبكر، شبكة ضفاف لعلوم اللغة العربية.
٢٤. قراءة ما لم يقرأ،نقد القراءة علي حرب،مج الفكر العربي المعاصر،ع٦٢-٦٣، ١٩٨٩.
٢٥. قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عزوجل،عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، ط٣، ٢٠٠٤ .
٢٦. القرآن وعلم القراءة،جاك بيرك،ترجمة د منذر عياش،دار التنوير، بيروت،ط١،١٩٩٦.

٢٧. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل،جار الله محمد بن عمر الزمخشري،دار الريان للتراث،القاهرة،ط٣، ١٩٨٦ .
٢٨. الكليات،أبو بقاء أيوب بن موسى الكفوي،تحقيق:عدنان درويش ومحمد المصري،مؤسسة الرسالة،بيروت،ط٢، ٢٠١١ /٢٣٩
٢٩. كيف نتعامل مع القرآن العظيم،د. يوسف القرضاوي،دار الشروق، القاهرة،ط١،١٩٩٩.
٣٠. لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، دار الفكر،ط٣،١٤١٤.
٣١. الماركسلامية والقرآن،محمد صياح المعراوي،المكتب الإسلامي،بيروت ط١،٢٠٠٠.
٣٢. المستويات القرآنية لمنهج التعامل مع النص ، د. عبد الرحمن حللي، موقع مركز الدراسات القرآنية
٣٣. المفردات في غريب القرآن،الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، المكتبة التوفيقية، مصر .
٣٤. مقاصد الشريعة الإسلامية،محمد الطاهر بن عاشور، الشركة التونسية للتوزيع والنشر،تونس،د ت.
٣٥. المعجم المفهرس لألفاظ القران الكريم،محمد فؤاد عبد الباقي،دار الحديث القاهرة ،ط٢، ١٩٨٨.
٣٦. معجم مقاييس اللغة،أحمد بن فارس بن زكريا،عبد السلام محمد هارون، دار الجيل،ط٢،د ت .
٣٧. مفاتح تدبر القرآن والنجاح في الحياة، د. خالد بن عبد الكريم اللاحم، الرياض،ط٢، ٢٠٠٧.
٣٨. مفاتيح الغيب،محمد بن عمر الرازي، المكتبة التوفيقية،القاهرة،٢٠٠٣ .
٣٩. المهارات القرآنية والكتابية طرائق تدريبها واستراتيجياتها، د. راتب قاسم عاشور وآخرون، دار المسيرة –عمان، ط١، ٢٠٠٠.
٤٠. مناهل العرفان في علوم القرآن،محمد عبد العظيم الزرقاني، فواز احمد زمرلي،دار الكتاب العربي،ط١، ١٤١٥ .

٤١. منهج الاستنباط في القرآن الكريم، د. فهد بن مبارك بن عبد الله الوهيبي، رسالة ماجستير، منشور على موقع المؤلف: www.almahil.net

٤٢. منهج التلقي والاستدلال بين أهل السنة والمبتدعة،أحمد بن عبد الرحمن الصويان، مج البيان، ط٣،٢٠٠١.

٤٣. النبأ العظيم: قراءات جديدة للقرآن الكريم،محمد عبد الله دراز،دار طيبة،ط١،١٤١٧ .

٤٤. النص القرآني من تهافت القراءة إلى أفق التدبر،د. قطب الريسوني،منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية –المملكة المغربية ،ط١،٢٠١٠.